

الأستاذ ألبير أديب

حين احتجبت مجلات الأدب في مصر بدءاً من الثقافة، فالرسالة، فالمقتطف، فالكتاب، شعرت بوحشة تملك على أقطار نفسي، وجفت موارد الإلهام في خاطري؛ إذ لأجد الحافظ الدافع للتتاج، مادام النشر مُوصد الأبواب، وقد بقيت الهلال تصدر شهرية كعهدها، ولكنها انتقلت من الخاصة إلى العامة، بمعنى أن البحوث الأكاديمية أصبحت ثقيلة الهضم في وضعها الجديد، وهي لا ترحب بالبحث المتسلسل ذي الحلقات المتوالية، كدأبها في عهدها السالف، وقد أولاني مدير تحريرها الأستاذ طاهر الطناحي مزيداً من عطفه، فكان يتكرم بنشر ما أرسله، وهو في أعماقه يأسف لوضع الهلال الجديد، لأن الطناحي قد عاصرها في أخصب عهودها الزاهرة، ثم اضطر إلى مجاراة الوضع الجديد، فخضع لماجد آسفاً غير سعيد.

وفي إحدى جلسات دار الهلال دار الحديث بيني وبين الأستاذ إبراهيم المصرى على انحسار المجلات الأدبية المتخصصة، فشكوت له غربتي بعد الرسالة، فقال: إن مجلة الأديب بלבنا تحكى مجلة الرسالة في أمور كثيرة، وهي ترحب بالبحوث المستفيضة، وستسر بها إذا تابعتها، وكنت أعرف أن معهد الدراسات العربية يضم مجموعة من مجلة الأديب، فبدأ لي أن أقضى يومين في مراجعتها، وارتحت إلى طابعها الأدبي كثيراً، فصممت على أن أوالى قراءتها شهرياً، ودفعت بمقال لي إلى صاحبها الأستاذ ألبير أديب، فمالبت أن نشر المقال، وأهداني المجلة شهرياً، فواصلت الكتابة في شغف، وبدأت أنشط.

مميزات الأديب:

ولقد لاحظت أن مجلة الأديب عالمية الذبوع، فهى تنشر لجميع الأدباء شرقاً وغرباً، وقد أقبل شعراء المهجر وكتَّابه على النشر بها حين احتجبت مجلاتهم العربية هناك، فكانت صلة وثيقة بين الشرق والغرب، كما رأيت المجلة تفرّد أبواباً للبحوث العلمية الجديدة، والاكتشافات الحديثة، وتعنى بما يجد فى عالم السياسة فتنتشر أخباراً موجزة فى خاتمتها عن أهم مايشغل المسرح السياسى، كما أن ماينشر تحت عنوان مكتبة الأديب يدل على أمثلة من المؤلفات الحديثة، تعرض عرضاً مشجعاً فى حين، وناقداً فى حين آخر، وهذا غير أبواب القصة والقصيدة والمقالة والبحث العلمى، أما باب البريد الأدبى فيشمل ردوداً مقتضبة أو مطيلة على أفكار نشرتها الأديب، واتسع المجال لمناقشتها وهذا الباب يذكر (بالبريد الأدبى) بمجلة الرسالة، ولكن مع فارق واضح، لأن باب الرسالة كان خاصا بالنقد والتعقيب المخالف، أما باب مجلة الأديب فقد اتسع كثيراً لما يجب أن يصيق عنه، إذ أطلع نفر من الأدباء بنشر ما يصل إليهم من رسائل التفريط المتبادل، أو التشجيع العاطف، وبعض هذه الرسائل مجاملات اضطرارية يكتبها الأديب الكبير حين يُفاجأ بكتاب أرسل إليه، فلا يجد من اللائق أن يهمله، بل يكتب رسالة مشجعة لصاحبه، وكان من حق الرسالة أن تطوى مادامت لا تحمّل مضموناً فكرياً هاماً، ولكن من أرسلت إليه يودّ أن يقرأ الناس ما قيل له، ولا فضاء يتسع غير باب البريد فى مجلة الأديب.

أذكر أنى كتبت للأستاذ ألبير أديب أعلن له مايجب من إهمال هذه الرسائل، لأنها ليست ذات موضوع، وقد ردّ الأستاذ علىّ قائلاً: إنه يعتقد أن الصواب فيما أقول، ولكنه يجد من الحرج المتواصل مايدفعه إلى نشر ما لا يرغب فى بعض الأحيان، ثم قال: إن قارئ الأديب إنسان ناضج، وأنه سيدرك لامحالة ما أعانيه من الحرج وسيغفرلى، وهنا نجد الفارق بين الأستاذ الزيات فى الرسالة، والأستاذ أحمد أمين فى الثقافة، وبين الأستاذ ألبير أديب فى الأديب، فالأولان متشدّدان لايعبّان بتشجيع من لا يستحق، والثانى غفور رحيم.

افتتاحية الأديب:

جعلت أنشر في الأديب على اتصال غير منقطع منذ عرفت طريقها، وقد أبطأت شهراً واحداً، وتبعه شهر آخر، فوجدت الأستاذ الكبير صاحب المجلة يرسل إليّ برقية يقول فيها: «حجزت لك افتتاحية العدد القادم»، ولا أدري لماذا هزتنى هذه البرقية هذا، لأنني أعرف قدر نفسي جيداً، وأعلم أن مقالتي ليس من القوة بحيث يسأل عنه صاحب المجلة، وينص على أنه حجز الافتتاحية، ولكنني من ناحية أخرى صممت على أن أوصل المجلة شهرياً بدون انقطاع، وإذا كنتُ أزهرياً أحتفل بمسائل التاريخ الإسلامي، فإن الأستاذ قد فسح لي المجال، وقد ذكر في خطاب له أنه يرحب بالبحوث التاريخية، وأن عليّ أن أوصل البحث بدون أن أتلكأ، أذكر هذا لأرد على من اتهموه بالطائفية بغياً بدون حق، فالأديب الأصيل دائماً إنسان لا يعرف التعصب، وما رزئت الأقلام إلا بفئات من الطغام ينتسبون إليها زوراً وبهتاناً، وهم عن الإخاء الراحم بمكانٍ بعيد.

وقد عانى الأستاذ كثيراً مما يعترضه في هذا الطريق، أذكر أن أستاذي الدكتور عبد الحسيب طه قد أهداني كتابه (أدب الشيعة)، وهو رسالة علمية نال بها درجة الأستاذية في الأدب والنقد، فكتبتُ بحثاً تحليلياً عنها، وبعثتُ به إلى مجلة الأديب، ولكنني تلقيتُ رسالة من صاحبها تعلن أن الحديث في مجلة الأديب عن الشيعة يفهم منه بعض الناس أن الثناء عليهم ذم لسواهم، وقد صودرت بعض الأعداد من مجلة الأديب في بعض الأقطار لهذا الفهم البعيد! ثم نصحتني أن أنشر هذا البحث بمجلة العرفان اللبنانية لأنها خاصة بالبحث الأدبي بنوع عام، والأدب الشيعي بنوع خاص! وقد عجبتُ لما ذكر الأستاذ، لأننا في مصر بعيدون عن هذه الحساسيات!

هذه واحدة، ولها ثانية تشابهها، فقد أرسل إليّ الشاعر اللبناني الكبير الأستاذ (فارس سعد) ملحمة شعرية رائعة تحت عنوان (طوفان النور)، وهي من القوة تصويراً وتعبيراً وفكراً بحيث تضع صاحبها في مصاف الكبار من أعلام الشعر

المعاصر، وقد قرأت الملحمة معجبًا، وكتبت عنها بعض ماتستحق، وأرسلتُ ما كتبت إلى مجلة الأديب، لأن الأستاذ فارس سعد من كبار شعراء لبنان، ومن أفاض شعراء مجلة الأديب بالذات، ولكن الأستاذ ألبير أديب بعث بالمقال معتذرًا عن عدم نشره، لأن الملحمة تتضمن هجومًا على قوم إن لم يذكروا بأسمائهم، فهم معروفون بأوصافهم وملامحهم، وسيؤولون القول كما يشاءون، وفي مقدورهم أن يسيثوا لمجلة الأديب، ولم أجد بُدًا من نشر المقال بمجلة «المنهل» السعودية؛ لأن الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري لا يرى ما يرى صاحب الأديب، فهو يصدع بالحق بدون قيد.

اعتراض وردة:

ولا أدري لماذا لم أسكت عن هذا الاتجاه، حيث أرسلت إلى الأستاذ أقول له: إن كل الناس يعلمون أن مجلة الأديب لاتعبر عن وجهة رئيس التحرير وحده، بل تفسح صدرها للرأى المخالف، وصاحب المقال هو الذى يتحمل تبعته مادام منشورًا باسمه، وفي هذا الفهم الواضح ما يمنع مؤاخذه صاحب المجلة، ثم أفضت فى هذه المعانى إفاضة شافية، فجاءنى رد سريع من الأستاذ يقول فيه: إن جميع ماقلته فى خطابى مُسَلَّم به، بل بدهى لايحتمل الشك، ولكن مايصنع صاحب المجلة حين يجد الأعداد تُصدّر فى عدة دول؟ وهى فى وضعها الراهن لاتغطى نفقاتها إلا بمجاهدة جاهدة، إن الذى يحنى رأسه للعاصفة قد لا يكون شجاعًا، ولكنه قد يتلافى الموت ليواصل النضال، وهذا أحسنُ من وجهة نظرى!. هذا بعض ما قال.

رثاء زوجتى:

انتقلت زوجتى إلى رحمة الله، فأرسلت عدة قصائد فى رثائها جاوزت العشرين، نشرتها تبعًا بمجلة الأديب، على مدى عامين، ثم تلقيت من صاحبها كتابًا يقول: إنه حائر فيما يقول لى، لأن قصائد الرثاء المتوالية تدل على لوعة حارة، وزفرة ملتبهة، وكان الظن أن مرور الوقت سيظفىء قليلا من هذه الجذوات

المشوبة، لذلك يرى مع إعجابه الفنّي بما يكتب أن أحاول الصبر قليلاً، والله معي .

ولا أدري لماذا فهمت من الخطاب فهمًا آخر، فهمت منه أن القصائد قد فترت في مضمونها الفنّي، وأن صاحب الأديب قد عبّر عن ذلك بلباقة حصيفة، فكتبت أشكره على اهتمامه بحالتي النفسية، وأعلن أنني فهمت نقده الصائب، ولمحت بوادر الإخلاص فيما كتب فاقنعت به، فجاءني رد عاجل من الأستاذ يقسم أنه لم يقصد ما استنتجته إطلاقاً، وأنّ ما أقوله جميعه في مستوى واحد، بل إن القصائد الأخيرة بها مايفوق القصائد الأولى فناً وإتقاناً، وإن لديه رسائل عدة من القراء تثني على هذه القصائد، ولم يشأ أن ينشرها لكيلا تدعوني إلى معاناة نفسية فأستمر في عذاب الألم كما يتصور، أما إذا كان الاستمرار مصدر تنفيس عن هذه المعاناة فهو يدعوني إلى الاستمرار مرحّباً، وكان خطاب الأستاذ بردًا وسلامًا على نفسي .

حىّ بن يقظان :

جاءني خطاب من الأستاذ يدعوني إلى كتابة فصل عن القصة الأندلسية (حىّ بن يقظان) لمؤلفها الفيلسوف الشهير ابن طفيل؛ لأن قارئاً عزيزاً قد كتب إلى المجلة يسأل عن هذه القصة، طالباً أن تنشر الأديب بحثاً تحليلياً عنها، ولم يشأ أن يعلن السؤال بالأديب، كيلا تتعدد الأسئلة من هذا الطراز، ولايجد من يُجيب عليها بإفاضة شافية، فتقع المجلة في الحرج، وكان من بواعث التوفيق أن مقال (حىّ بن يقظان) مخطوط لدىّ، كتبته في كتابي (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير) ولم أنشره بعد، فسارعت بإرساله إلى المجلة، وقد تلطف صاحبها فبعث بخطاب شاكر، ووعد ألا يرهقني بمثل هذا الطلب، قائلاً: إن البحوث المفروضة تكلف الكاتب رهقاً، لأنه يبدأ من نقطة مجهولة، أما البحوث النابعة من تفكير الكاتب نفسه فتجد طريقها ممهداً من خواطره، وتلك وجهة نظر لها صوابها، وأذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قد ذهب إلى ماخانفها، إذ

ذكر في بعض مقالاته بمجلة الهلال أنه يسرّ بالمقال المقترح سروراً رائداً، لأنه يفتح أمامه باب البحث عن موضوع لم يكن يفكر فيه غالباً، فيكسب خبرات جديدة في اكتشاف عناصر الموضوع، وكثيراً ما تؤدي هذه الخبرات إلى غيرها، فتتولد بحوث جديدة هي ثروة للكاتب والقارئ معاً، هذا ما قاله العقاد، ولكن من الذي له طاقة العقاد العلمية، ومقدرته النفسية، وشجاعته الرائدة في اكتشاف المجهول؟!

سرقة واضحة:

نشرت مجلة الأديب قصيدة لشاعر عراقي وجدت معانيها جميعها مأخوذة من قصيدة للشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل، يقول في مطلعها:

مرّت على النهر وقالت له	- وموجه في خشعة الساجد:
يانهر، قاسمني الأسى مرة	وهات أخبارك عن عابدى
طال على الشّجو من بعده	والصمت من قيثاره الزاهد
نبي أحلامي وشادى الهوى	بمعجزات النغم الخالد
أضأقت الدنيا بتغريده	فطار عن موطنه الجاحد؟
ام راح يلقيه فيمضى كما	مرّ الصدى بالكفف الهامد؟
يانهر، أسمعنى حديث الهوى	وهات عن بلبلى الشارد

والقصيدة تحكى قصة تتوالى مواقفها مشهداً خلف مشهد، ولم يزد الشاعر عن أنه نظم القصّة بألفاظ تقرب من ألفاظ الأستاذ محمود حسن إسماعيل، ولم يأت بجديدٍ ما يشفع له في هذا السطو، وتوقعت أن ينشر الأستاذ ما أراه من نقد هادف، فالسألة موضوعية لاذاتية، لذلك بادرت بإرسال مقال يكشف هذا الاختلاس الجرى، ولكن الأستاذ ألبير صاحب القلب الرقيق، كتب إلى يقول: إنه صُدِّمَ صدمة عنيفة من هذا السطو القبيح، ولكنه علم من بعض زائريه أن الشاعر مريض جداً، وقد اعتزل في مستشفى خاص بحيث لا يزوره إلاّ قلة من

أقاربه، ويخشى حين ينشر نقده أن تصل إليه المجلة بطريق ما، فيتضاعف ألمه فى هذه المحنة، لذلك يؤثر أن يحتفظ بالمقال حتى يعاود المريض شفاؤه. ولم تمض أسابيع حتى لحق الشاعر بربه، فحمدت للرجل الكبير رفته الحانية، وطلبتُ منه أن يهمل النشر، مع أنه حق أدبى لا اختلاف عليه، ولكن هذا ماكان.

حرب لبنان:

قامت الحرب الأهلية بلبنان، فحجبت الأديب عن الظهور لمدة عام وأكثر، ثم استطاع صاحبها أن يعيد إصدارها على فترات متقطعة باذلاً أقصى الجهود المضنية فى أداء رسالتها، وقد صادف أن توقفت المجلة وأنا بالسعودية، ثم جئت إلى مصر فاستأنفت صدورها، ووصلت أعدادها إلى بالسعودية تبعاً بدون أن أعلم، ثم علمت مصادفة باستئناف ظهورها، فأرسلت إليها مقالاتى الجديدة، وأخبرت الرجل بانتهاء بعثتى للسعودية، فأرسل ماسلف من الأعداد إلىّ، ثم صعب الأمر عليه، فكان فوق احتماله أن يوالى الإصدار. . . ودهمته العلة، ففارق الحياة تاركاً أحسن الذكرى لدى أصدقائه ومريديه؛ إذ كان مثلاً نادراً فى صفاء النفس، وسعة الصدر، وأداء الواجب.

الأستاذ كمال النجمي

بدأ الأستاذ كمال النجمي حياته الأدبية شاعراً مبكراً، حيث نشر بالصحف أوليات شعره في سن الرابعة عشرة، ومازال يقرض الشعر حتى بلغ عهد الشباب، ثم انقطع فجأة عن النظم، مع أنه نال الجائزة الأولى في مسابقة الشعر بجمع اللغة العربية عن استحقاق جدير، ومن يبلغ هذا المبلغ الفني الرائع، ثم يصمت فجأة لا بد أن يترك أكثر من سؤال . .

لقد كنتُ أقرأ للأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله الدواوين الشعرية التي تقدمت لنيل الجائزة، إذ كانت عينه حينئذ تشكو الرمد، وكان شعر الأستاذ كمال يسبق سواه سبقاً جلياً، فأثره على غيره، ثم مضى إلى رفيقيه اللذين كانا يشاركانه الحكم، فلم يختلف الأمر بل كان الاتفاق مجمعاً عليه، لأنّ سبق الشاعر كان من الوضوح بحيث لا يُزاحم، ومن قصائده الرائعة بالديوان قصيدة (يقظة النيل)، وقد ابتدأها شاكياً عهد الغفوة قبل الصحوة فقال:

دهى النيل ليلٌ فاستطال هُجوده وأورث جنبه كلالاً رقدوه
بساتينه باتت نواعس حوله وأغفت بها أطياره ووروده
فلا صادحات الأيِّك فيه صَوادِحٌ ولا الورد لذ النفع ريان عوده
ولا النبت مطراف على الأرض يانع قشيب ولا صوب الربيع يجوده
ولا النخل مزهو من العجب ناهض على النيل سمر فارعات قدوده
ولا النيل تأتيه إذا نصل الدجى صباياه يملأن الجرار وغيدوه

والقصيدة أكثر من سبعين بيتاً تنحو هذا المنحى البحترى الرائع، وأقول البحترى لأن السلاسة العذبة، مع رقة التصوير تشهدان للشاعر بأنه ينتمى لمدرسة البحترى التى اتمى إليها كبار الشعراء فى هذا العصر، وكان من العجب العاجب أن يصبح كمال بعد هذا السبق (مازانيا) يهجر الشعر نظماً، لانقداً، لأنه تمشق سلاح الناقد إلى هذه اللحظة محارباً مايسمى بشعر التفعيلة، ومقالاته فى الهلال، وفى مجلة المجلة، وفى مجلة العالم العربى، تجمع هذه النقداً الهادفة، ولعله يضمها فى مؤلف خاص، لتكون صوت النذير.

سبب الهجران:

وقد جعلت أسأل عن هجر الشاعر لفنّه، حتى علمت أن حالة نفسية قد صدمته، فامتنع، إذ كان الشاعر ينشر قصائده فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام، فى المكان البارز الذى ينشر فيه الجارم، ومطران، وعلى محمود طه، والأسمر، وكان الأستاذ أنطون الجميل يراه فى شبابه الباكر يشير إلى مستقبل مرموق فى دنيا الشعر، فيحرص على تقديم شعره فى أسطع معرض، وأول ما نشره الأستاذ كمال النجمى بالأهرام قصيدة فلسطين التى مطلعها:

علت صيحة كالرعد دوى هزيمها	تحامى صداها واتقاه غريمها
ألمت بأسماع الطغاة فزلزلت	وحز قلوب المؤمنين أليمها
هفت من فلسطين إلينا فنبهت	نياماً فلاها كهفها ورقيمها
تقاعس عنها حين ضيمت وليها	وأسلمها للحادثات حميمها

والقصيدة تتجاوز الخمسين من الأبيات بهذه القوة المتماسكة، والانفعال المتوهج، ومازالت قصائد الشاعر تشرق بالصفحة الأولى بالأهرام، حتى رحل الأستاذ الجميل إلى جوار ربه، وخلف بعده من تنكّر للشعر بعامة، فلم تعد الجريدة المرموقة تحتفى بهذا الفن الأوّل من فنون العرب، وضاق النجمى بما صادفه من نكران لم يكن فى حسابه فابتأس.. هذا ماكان.. ولا أدرى كيف ناء تحت

هذه الأزمة، ولم يتجاوز الأهرام إلى سواها، مع أنه نال جائزة المجمع بعد رحيل الجميل، لقد كتب لى مُفصّحاً عن هذا السبب، حين سألته عن امتناعه المباغت! وله نظراء قد هجروا الشعر بعد سبق، كالمازنى، والرافعى وشكيب أرسلان، ولكلّ علّة خافية تحتاج إلى إفصاح.

بدء الصلّة:

كنت أقرأ مايقع فى يدى من آثار كمال النجمى، وقد كان من التواضع بحيث يرمز إلى توقيعه كثيراً بدون إفصاح، وقد كتب سلسلة من الخواطر النقدية والاجتماعية بامضاء (ابن زيدون) فى جريدة يومية، وعرفت أنه الكاتب لأنه أشار إلى قصيدة كتبها والده الشاعر المظلوم - على فضله الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى فى تحية صديقه الشاعر إبراهيم الدباغ، والقصيدة من محفوظاتى الخاصة، فأدركت حلا للغز (ابن زيدون) ثم عن لى أن يكون الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى موضع دراسة للماجستير بجامعة الأزهر، ولكن أين الديوان؟ لقد اهتديت إلى أن يذهب الباحث (الدكتور عبد الحميد شعبان فيما بعد) إلى الأستاذ كمال ليستعير الديوان مخطوطاً، وقد رحب الابن الوفى أكمل ترحيب، وأمدّ الباحث بكل ما طلبه عن حياة والده وشعره، حتى استوت الدراسة تامة ناضجة! ومن أطرف ما حيرنى فى هذا المجال أنى قرأتُ للأستاذ كمال بمجلة العالم العربى فى الخمسينيات دراسةً مستوفاة عن والده فى مقال كاشف وضىء، فعن لى أن يعيره للطالب الباحث كى يكون بعض المراجع التاريخية عن الشاعر المدرّس، ولكن الأستاذ كمال ذكر أنه لايعلم شيئاً عن هذا المقال، ولا يتذكر أنه كتبه، وهى عجيبة جداً فى رأى، وأدعوه إلى أن يبحث عنه فلا بد أن يكون مخبوءاً فى مكان مُهمّل من الأضيير، لأننى قرأته واثقاً، ولو كنت أعلم الغيب لاحتفظت بالعدد.

وللأستاذ كمال حياء مفرط يدفعه إلى حساسية بالغة، فقد سمعته فى حديث إذاعى امتد إلى ساعة كاملة يتحدث عن نشأته الشعرية، وآثاره الفنية، فتكلم عن تأثرهم من الشعراء، ولم يذكر اسم والده الذى ترك أربعة أجزاء من عيون الشعر

العربي الأصيل، وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان متعجباً أن لا يدوي اسمه في آفاق العالم العربي كما دوت أسماء شوقي، وحافظ، ومحرم، ولعلّ من أسباب خفوت ذكره، أنّه كان ملتزماً أشد الالتزام، فوجّه شعره إلى اليقظة الإسلامية وأبطال الكفاح والنضال، واتخذ من مجلات النضال مذياعه المتواضع، فبرز كل التبريز في هذا المجال! لقد كتبتُ للأستاذ النجمي بعد سماع الحديث الإذاعي أسأله: كيف أهمل ذكر والده، فكتب يقول: والله إنّه كان يملأ خاطره أثناء الحديث، ولم يغب لحظة عن باله، ولكنه استحيا من ناقد جرىء يقول: مالنا ولأبيه! وأنا أقول للأستاذ كمال: إنك أوّل من يجب أن يؤلف كتاباً عن الشاعر الكبير، فأنت به أدري وأعلم، وللتاريخ حق عليك، أما أن يلغظ لاغظ بما يهذر، فليس لنا أن نقيم له وزناً ما، وقد علمت أن الدكتور عبد الحميد شعبان قدهياً ديوان الشاعر للطبع، وسيرى النور عن قريب.

القلم الصّوال:

على أن هذا الحيّ الخجول ذو قلم صوال، لا يملّ العراك، وفي أعداد الهلال المتوالية لذعات نقدية تدل على مقاومة صلبة لمن لا يتتحوّن منتحاه في الشعر والفرن، وأذكر أنه كتب مقالاً بعدد مارس سنة ١٩٨٩ من الهلال ينكر فيه شعر الرافعي والمازني والعقاد وعبد الرحمن شكرى لأنه يجمع بين الفلسفة والشعر، فيستغلق على القراء، وقد أنكرت هذا الرأي إنكاراً شديداً، وكتبتُ مقالاً في معارضته، ولكنني وجدت الأستاذ كمال يبدأ مقاله بقوله تحت عنوان (الحب شعراً والحب نثراً):

«إذا وجدت أيها الصديق القارئ تفاوتاً في هذا الكلام فالسبب أننى لا أكتبه بل أمليه، ولست معتاداً الإملاء، فقد عشت سنين لا تحصى أكتب بيدي، وقد وضعتُ القطن على عيني الاثنتين، وفوق القطن الضماد، ورقدت، فقد مرضت عيني فجأة!» قرأت هذه العبارة ومابعدھا، فشاركت الأستاذ ألمه، وطويت المقال، وبعثت أحد تلاميذى لزيارته سائلاً موسياً، إذ لا أطيق لقاء مريض عزيز، ثم من الله

على الأستاذ بالشفاء، وأنا أبحث الآن عن المقال لأشره، ولكنه اختفى متحدياً، ولا أستطيع أن أكتب مقالاً سبق أن حررته، لأن الفورة الأولى قد هدأت، وكانت مبعث جيشان وهدير.

جانب الفن:

لا أقول إن جانب الفن قد استولى على كمال النجمي لأنه رأس تحرير مجلة (الكواكب) عدة سنوات، كما لا أقول إن جانب الأدب قد استولى عليه لأنه رأس تحرير مجلة الهلال عدة سنوات، فالأدب والفن قد استوليا على الأستاذ وهو يافع ناشئ، وإذا سجل ديوانه المطبوع بعض مانظم من الشعر، فإن مؤلفاته في عالم الفن تحتل مكانتها المرموقة، ولم يقصر حديثه الفني على عهد واحد، بل تكلم عن الغناء العربي في القديم والحديث تكلم البصير العارف، وحين ماتت المطربة الشهيرة (أسمهان) رثاها أبداع رثاء، وكانت قصيدته زميلة لقصيدة أخرى لعلى أحمد باكثير رثى بها أسمهان، وأذكر أني حدثت الأستاذ كمال عنها في خطاب خاص، فأرسل يطلبها، لأنه قرأها في حينها ثم ضاعت منه، وقد أرسلتها إليه، فكتب مقالاً عن مراثى أسمهان بعدد سبتمبر سنة ١٩٨٢ من مجلة الدوحة يتضمن من الذكريات الفنية مايدل على الكثير..

لقد تحدث الأستاذ النجمي عن الغناء في كتب متوالية تحت عنوان، الغناء المصرى، سحر الغناء العربى، أصوات وألحان عربية، ومطربون ومستمعون، كما أفاض في مقالات الهلال عن عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وفايزة أحمد، وسيد درويش، وغيرهم من أعلام الفن، وحديث الشاعر عن الفن لا يشبه حديث المؤرخ الأكاديمى، لأن كثيراً ممن كتبوا في مجال الدراسة العلمية تخلوا عن مشاعرهم، ونسوا أنهم يتحدثون عن فنانيين لاعن علماء، أما كمال فقد كان فناناً في حديثه، لذلك كانت كتبه تُستوعب بدون سأم، لا يكاد يبدأ القارئ الصفحة الأولى حتى ينتهى إلى الصفحة الأخيرة في غير انقطاع، وما تركه الأستاذ في مختلف الصحف من المقالات، والدراسات يؤلف مجموعة أخرى من الكتب

الفنية، وفي متناوله أن يخرجها للناس، لتكون تاريخاً يُروى، تاريخاً مؤيداً بالوقائع، لأن بعض الكاتبين في هذا المجال يخترعون.

حكايات الأغاني:

شغل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جمهرة الدارسين على مرّ العصور، وفيهم من قام بتجريده، ومن قام بتهذيبه، ومن قام باختصاره، ولكل منحى فيما قصد، ولكن الأستاذ النجمي قام بنوع جديد في خدمة هذا الأثر الضخم، إذ شاء أن يضم ما تناثر من أخبار الشاعر أو المطرب في أبواب كثيرة تمتد إلى ما فوق العشرين جزءاً في حيز واحد، بحيث يقدم صورة وافية عن المتحدث عنه فيما سماه يوميات، وقد جاءت هذه التسمية موفقة، لأنها تضم الأحداث المختلفة متسلسلة في اليومية الأولى، فالثانية، فالثالثة، حتى التاسعة، كما في يوميات إسحاق الموصلي، وبهذا النحو من التأليف صار كتاب الأغاني سمرّاً للعامة والخاصة، بعد أن كان وقفاً على الخاصة وحدهم، وهو جهد مستتر لا يدركه غير من كابد قراءة التراث في منازعه المتباعدة، وحاول أن يجعل من أمشاجها جسماً ملتئماً متماسكاً! ولم يقف الكتاب عند أخبار المغنين والجواري، إذ اتصلت الأحداث بالخلفاء والوزراء والولاة والشعراء، ولكل حدث دلالة تاريخية والنفسية والاجتماعية، أذكر هذا لأقول: إنّ ضجة في الصحف قامت حول كتاب الأغاني لأمد قريب، حيث شن بعض الكاتبين حملة على حفلات الطرب غير الملتزم بالجامعة! وهي حملة صادقة لها ما يبررها، ولكن بعض ذوى الأهواء كتب يهجن هذه الحملة مستنداً إلى أقوال أبي الفرج في الأغاني استناداً شرعياً لا أدبياً، وكأنّ أبا الفرج صار أحمد بن حنبل أو الشافعي أو مالكا أو أبا حنيفة، فكتبت مقالاً بجريدة الوفد أضع كتاب الأغاني موضعه الصحيح، فهو جملة أسماء وأحاديث وأشعار بعضها صحيح وبعضها مختلق، إن لم يكن أكثرها، وإذا جاز أن يكون أحد مصادر الأدب فلا يعقل أن يكون مصدراً للأحكام الشرعية! كتبتُ هذا المقال، ولا أدري لماذا توهم الأستاذ كمال أني أنتقص كتابه كما أخبرني بعض من حادّتهم في ذلك، فالكتاب عملٌ أدبي جيد لاشبهه فيه، وما كتبتُ مقالاً إلا نقداً لمن يحاولون أن

يجعلوا أبا الفرج الأديب الراوية فقيهاً مُشرِّعاً فيأتون البيوت من غير أبوابها،
ولعلى أكون قد أوضحت ما أريد بدون التباس.

مع العقاد:

تحدث الأستاذ كمال النجمي في مقالات كثيرة عن العقاد، والعقاد كالمتنبي ملاً
الدنيا وشغل الناس، وللنجمي رأى في شعره، سبق أن أشرت إليه بإيجاز، وقد
قرنه مع المازني الشاعر في اتجاهه، وهذا ما أخالفه لأن للمازني في شعره رِقَّة
وسلاسة تنأى به عن صاحب الفكرة الفلسفية في الشعر، كما أن هناك فرقاً بين
المنطق العقلي والمنطق الوجداني، وشعر العقاد وشكري أقرب إلى المنطق
الوجداني، ولكن إحساسهما العميق يرتفع بهما عن المُشاهد المألوف لدى الشعراء
السطحيين، وما أريد أن أستفيض في ذلك الآن، ولكني أذكر أن النجمي تحدث
عن غراميات العقاد، فذكر أن صلَّتهُ بـمى كانت من طرف واحد، وهذا ما أميل
إليه، لأن الأنسة مى لم تحب من صميم فؤادها غير جبران خليل جبران على تنائي
داره، كما أخبرني الأستاذ طاهر الطناحي بذلك، ولكن الذي لم أرتح إليه في
مقال النجمي عن غراميات العقاد ذكر بعض العلاقات الخاصة التي يحسن استئثارها
تكريماً لذكري الراحلين، وإن كان النجمي قد أدّى حق المؤرخ الصادق في رأى
من يميلون إلى التبعّ الدقيق والاستقصاء التام.

الدكتور محمد يوسف موسى

كان معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية يُقيم ندوات تنظمُ عدة محاضرات ثقافية يُدعى إليها كبار الأساتذة من الجامعات، فيلقون كلماتهم الموضوعية في شأن من شؤون التربية والتعليم، ليعقبها نقاش هادفٌ تتمحص فيه بعض الحقائق، ثم تنتهى الندوة بعشاء متواضع، يقبل عليه المستمعون ليواصلوا سمرهم المؤنس في هشاشة وابتهاج.

وقد دُعِيَ الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر في موسم العام الثقافى سنة ١٩٥٠، ليلقى محاضرة شاء أن يكون موضوعها، «لِنَكُنْ قُوَّةً تَفْعَلُ لِأَمَادَةِ تَفْعَلُ» وهو موضوع ثقافى تربوى، لأنه عرض في دقة شذوراً من تاريخ المسلمين حين كانوا قادة الأمم في عصورهم الزاهرة، فأحدثوا في العالم انقلاباً فكرياً واجتماعياً وسياسياً قفزت به الإنسانية أكبر قفزاتها في طريق التقدم الحضارى، فكانوا بذلك قوة فاعلة، ثم انتقل إلى الحاضر المؤلم، فأوضح كيف صاروا يتلقون عن الغرب ما يحدث من أقوى مظاهر الاكتشاف العلمى، والابتكارالصناعى بدون أن تكون لهم مشاركة في هذا الاكتشاف، فصاروا مادة تنفعل، ولم يُغفل تحديد الأسباب التى دعت إلى هذا التخلف، منتقلاً إلى المجال التربوى لبيّن أن الطفل في مشرق حياته كالأمة في أولى خطواتها، لا بدّ لهما من التقليد الواعى، فيقلد الطفل أباه الرشيد، كما تحاكي الأمة المتخلفة من تقدّمها في ركب المدنية، حتى إذا بلغ الطفل أشده وكان صحيح التربية ترك التقليد إلى الابتكار، وكذلك تبلغ الأمة رشدها فتسهم في بناء الحضارة تعطى وتأخذ. ثم ختم حديثه بقوله: « إن من الواجب ونحن في نهضة

وطنيّة واجتماعية ألا يكون الواحد منا مادةً تنفعل بغيره، بل يجب أن يكون في نفسه قوة تفعل لتؤثر في سواه».

وقد قدّر لى أن أتولى تقديم المحاضر الكبير، إذ كنتُ إذ ذاك طالبًا بمعهد التربية، واتحاد الطلاب هو الذى يدعو الحاضرين، وهو الذى يتولّى تقديمهم دون أساتذة المعهد، وكانت لى صلة ثقافية بمؤلفات الدكتور ومقالاته، كما كنتُ أعرف من تاريخه العلمى دقائق قد تغيب عن غيرى، فعرضت إلى نبوغه فى التأليف موجزاً الإشارة إلى اتجاهاته العلميّة، ثم انتقلت إلى الحديث عن درجة دكتوراه الدولة التى نالها الدكتور من جامعة السوربون بباريس، وكان ممّا قلتُ:

«لقد شهدت قاعة «ريشيليو» الكبرى بجامعة السوربون مناقشة فلسفيّة لرسالة علميّة كتبها الدكتور محمد يوسف موسى تتضمّن بحثًا عن الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط. وكانت لجنة المناقشة مكونة من خمسة أساتذة من السوربون، والكوليج دى فرانس، وقد رأس المناقشة البروفسور ليفى بروفنسال، كما شهدها الدكتور طه حسين مع نخبة من دارسى العلم فى باريس عربًا ومسلمين، واستمرت المناقشة خمس ساعات كاملة ظفر بعدها الدكتور محمد يوسف موسى بأرقى درجة علمية تمنحها جامعة السوربون، وهى دكتوراه الدولة فى الفلسفة بدرجة مشرف جدا، ثم أعلنت الجامعة دعوة الدكتور محمد يوسف لإلقاء المحاضرات عن فلسفة التشريع الإسلامى باللّغة العربيّة».

وبعد انتهاء الحفل، أرسل الدكتور محمد يوسف من يدعونى للقاءه، وسألنى عمّن أخبرنى عن احتفال الدكتوراه بالسوربون، فقلت: إن الجرائد اليومية أشارت إليه فى مصر، وعنّها قلتُ ماقلت، فابتسم شاكرًا، وطلب منى أن أسهر معه فى الفندق حيث يقيم هذه اللّيلة، فقلت: إنى أرحبُ باللقاء وأعتزّ به، ولكنك مجهد بعد هذه المحاضرة الدسمة، فقال: لقد ارتحت للقاءكم ارتياحًا أزال عنى التعب، فهل تصحبنى؟ قلت: تلك فرصة علمية أغتنمها، فكيف أتخلّف؟

فى سكون الليل:

امتدّ بنا الحديث طويلاً طويلاً فى هدوء الليل الساكن فى شتاء الإسكندرية، فحضرنا فى مسائل كثيرة من مسائل الثقافة والتربية، وقد تحدث الدكتور عن البيئة الثقافية فى أوروبا، وكيف أنّها تُساعد على تكوين الباحث تكويناً مثمراً سريعاً، وقال: إنه مثلاً حين يدخل قسم الدراسات الإسلامية بإحدى مكاتب الجامعة الأوربية باحثاً عن مسألة معينة، يجد من الفهارس المتعدّدة ما يُسرّع بتحقيق رغبته فى أعجل وقت، كما يجد من القائمين على أمور المكتبة من يفهم الموضوع بوجه عام، فيشترك معه فى إعداد ما يرغب من الكتب عن دراسة واختبار، وهذا فى مسائل إسلامية لا تحتل المكانة الأولى لدى أصحاب المكتبة، فما ظنك بفروع الطبيعة والكيمياء والفلسفة الأدب والتاريخ الأوربيّ؟ وأنت لدينا فى مكاتب مصر لا تجد من الموظفين غير المتخاذل المثبط، وإذا طلبت كتاباً غير الذى فى يدك تضايق ونفراً كأنك تكلفه بغير ما أعدّ له، هذا بالنسبة إلى الكتب، أما بالنسبة للأساتذة فسأذكر لك حادثة لها مغزاهما، لقد أردت فى أوّل مقدمى إلى باريس أن أزور كبار المتخصصين فى البحوث الإسلامية من أساتذة جامعاتها، فبدأت بالأستاذ الكبير ماسينون، وهوذ الشهرة المستفيضة فى مسائل الفلسفة وبحوثها، وحدثته تليفونيا عن رغبتي فى لقائه، فأبدي من السرور ما لم أتوقع، وبادر بتحديد الموعد فى صبيحة الغد، فلما سعدتُ بلقائه انتظر معى قرابة ساعتين فى حديث موضوعى ينم عن رغبة منه مخلصه فى الإفادة والتوجيه، ورجاني أن أتكرّم - كما قال - بتكرار زيارته، ثم فوجئت بزيارته لى فى اليوم التالى بمسكنى المتواضع ليشكرنى على ابتدائي بزيارته، وفى صحبته عدة مؤلفات ومجلات تساعدنى فى مهمتى الثقافية، وكان من المصادفات أن أجد الأستاذ الدكتور طه حسين يزور باريس فى هذا الوقت، فأردت أن أسعد بلقائه، ليرشدنى إلى أوجه النشاط الثقافى بباريس كما يعلمها أحسن العلم، وعرفت موضع إقامته، فاتصلت تليفونيا بسكرتيره فأخبرنى أنه خارج الفندق، وعاودت الاتصال فقال السكرتير إنه جاء ليستريح لا لمقابلة الباحثين من الطّلاب! ولا أدرى لماذا أكثرت من المقارنة بين مسلك الأستاذ

ماسينون ومسلك الدكتور طه حسين معي، وهي مقارنة تدل على الفرق الشاسع بين الروح العلمية لدى الأساتذة هناك والأساتذة عندنا.

قلت في شبه اعتذار عن الدكتور طه حسين ربما كانت ظروفه الخاصة لاتسمح، فقال الدكتور محمد يوسف موسى: أفلا أقل من رد جميل؟ ثم تطرق الحديث إلى كفاح الطالب المبتدئ في مصر والشرق، فقال الأستاذ إن الطالب الطموح يكافح وحده بدون معين، وقد ضرب المثل بنفسه، فقال: إنه بعد تخرجه من الأزهر عمل محامياً شرعياً لوقت ما، ولم يسترح لعمله، فأراد أن يكمل دراسته في أوروبا على نفقته الخاصة، وحين ضاقت به الأزمة في الحرب العالمية الثانية حاول أن يجد من الأزهر - وقد التحق به مدرساً في بعض كلياته - من يسمح بانتظامه في إحدى البعثات التي تنفق عليها الجامعة الأزهرية، فلم يجد أذناً تصغي، واضطر إلى أن يدبر النفقات على حساب أسرته الخاصة، وقد أعانه الله فَوْقَ إلى ما أراد! وليس وحده في هذا المجال، فهناك الكثيرون من أبناء الأزهر والجامعة المصرية يدرسون بجامعة الغرب بدون أدنى معونة مادية، وسيظفرون، لأنهم يقدرون قيمة الوقت، ويعلمون أنهم يصارعون الأمواج بدون نصير غير رعاية الله.

مقال خطير:

انتهت الزيارة على أحسن ما يُرجى لها من التوفيق، وودعت الأستاذ، وأنا أعتقد أني كسبتُ صديقاً و أستاذاً في آن واحد، وتبادلنا الرسائل في إخلاص وحب، ثم حدث أن نشر الدكتور مقالاً خطيراً بجريدة الأهرام عن السياسة التعليمية بالأزهر، دعاً فيه إلى أن يكون القسم الابتدائي بالأزهر مشتركاً مع المدارس الابتدائية بمصر، بحيث يختار طالب القسم الثانوي بالمعاهد الدينية من طلاب المدارس الابتدائية بعد أن تكثر بها المواد الدينية المناسبة، وذلك لكي يكون الطالب الأزهرى في المرحلة الثانوية مهياً لدراسة لغة أجنبية ألم بها من قبل، ومستعداً لدراسة الضرورى من فروع الثقافة المختلفة فيتساوى مع زميله في

المدارس، ولا ينقطع إلى الدراسة التخصصية انقطاعاً تاماً إلا في مرحلة الكليات. ولم يكن الدكتور محمد يوسف موسى أول من أشار بذلك، فهي فكرة قديمة دعا إليها الأستاذ إسماعيل القباني، والأستاذ أحمد حسن الزيات، وغيرهما، ولكن صدورها من أستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر قد أهاج عليه مجموعة كبيرة في محيطه الأزهرى، وانتقلت المناقشة إلى صحف دينية تعتمد على الإثارة العاطفية والتهيج الخطابى بدون دراسة موضوعية، وفي كتابها من يترك الموضوع إلى الحديث عن قائله فيرميه بسوء النية وخبث الاتجاه، ثم يقول إنه صنيعه من تلقى عنهم الفلسفة فى باريس! وهذا كله دَجَلٌ غوغائى لا يمت إلى البحث النزىه، إذ أن كل أزهرى حريص على جامعته ويعدها مبعث فخره، بل كل أزهرى حريص على إصلاح معهده، فإذا تعددت وجوه الإصلاح بتعدد الدراسين، فلا بد من الاستماع الجيد، والحوار الهادف، والموضوعية البريئة من الشطط والجموح.

لقد أزعجنى أن أقرأ بعض ما تورط فيه المتسرعون بشأن الأستاذ، فعجلت بزيارته فى منزله بجزيرة الروضة، وكنت أظنه ضائعاً بما قرأ، شاكياً ما لحق به من تهجم يتغلغل إلى الضمائر فى خفة طائشة، ولكن الأستاذ فاجأنى بابتسامه الهادىء، وثباته المطمئن، وقال: إنه قبل أن يكتب اقتراحه، كان يتوقع ما حدث، لأنه رمى بالحجر فى البئر فلا بد أن يحدث اضطراباً فى الماء، ثم غمره الروح الفلسفى، فامتد بالموضوع إلى آفاق إنسانية نبيلة، وأذكر أنه قال فى خاتمة حديثه: إنه إذا لم يجد أذنًا تسمع ما يقول وتستجيب، فحسبه أنه لفت الأذهان إلى ضرورة الإصلاح الأزهرى، إذ يجب على المسئولين أن ينظروا فى المناهج التعليمية بالقسم الابتدائى والقسم الثانوى فيضيفوا إليها ما يقرب الطالب الأزهرى من ثقافة العصر، وإذا تم ذلك فلا اختلاف! قلت له: ولماذا لم تتجه هذا الاتجاه فى مقالك لتحفف من حدة المعترضين؟ فقال الرجل: إن القوم نيام لا يوقظهم الصياح المتصل، فلا بد من الإزعاج باقتراحٍ مدوٍ يجلجلل صدها حتى يتجه المسئولون إلى التعديل والتحويل.

إلى كلية الحقوق بالجامعة:

لم تصفُ الحياة بالأزهر للدكتور محمد يوسف موسى بعد مقاله بالأهرام، فناوأ من لا يُقدِّرون حرية الرأي، وعدوه خصماً لدوداً، وما هو به، وصادف أن عرضت عليه جامعة فؤاد أن ينتقل إليها أستاذاً مساعداً بكلية الحقوق، فقبل العرض، وكان لذلك دويٌّ في المحيط الثقافي عبر عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات حين كتب في مجلة الرسالة تحت عنوان (ثروة من ثروات الأزهر تنتقل إلى جامعة فؤاد) قائلاً:

«قرر مجلس جامعة فؤاد الأول بجلسة ٣٠ يونيو تعيين الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أحد علماء الأزهر وخريج جامعة باريس أستاذاً مساعداً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وقد كان الأزهر أولى بهذه الشمار الناضجة التي تفتحت في جوّه، وعاشت بروحه، وتعمقت في ثقافته، ثم أخذت بنصيب موفور من العلم الحديث بلغته وفي موطنه، فاكتملت لها الأداة لتجديد البالي، وإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، مما كثرت الشكوى منه، وطال الجدل فيه من أنظمة الأزهر ومناهجه وكتبه، ولكن الأزهر - لأمر يعلمه الله - لا يريد أن يغيّر ما بنفسه، ولا يحب أن يعترف بالفضل لأهله، والكفأة إذا لم يجدوا الإنصاف في بيتهم ومن عشيرتهم تحوّلوا إلى النظام المنصف، والعلماء إذا لم يجدوا الحقل مهياً للغراس تركوه إلى المكان الطيب».

بين الفلسفة والشريعة:

كان المظنون أن ينتقل الدكتور إلى كلية الآداب ليدرس الفلسفة، التي نال فيها دكتوراه الدولة بباريس، وقد انتقل إلى كلية الحقوق ليدرس الشريعة التي لم يؤلف فيها من قبل، ولكنه وهو العالم الأزهرى الضليع، لم يكن بعيداً عن الحقل الجديد، وقد أثبت جدارته الفائقة حين بهر طلابه بغزارة معارفه، وشمول نظرتة، ثم أصدر من الكتب العلمية في محيط الفقه الإسلامى ما سأمى به نظراءه من الأساتذة الكبار بكلية الحقوق، ولم يقتصر على النهج التقليدى المتبع، بل دعا دعوات حرة إلى التجديد فى الاجتهاد والتحليل والتطبيق، وكان شجاعاً حين كتب

مقالاته الهادفة تحت عنوان (أزمة الفقه الإسلامى) التى تتمثل فى انصراف أولى الأمر عن قوانينه، فيما تأخذ به المحاكم الأهلية من تشريع، ثم فى هذا الهجوم الملح المتكرر على من ينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية وكأنهم يقترفون منكراً ولا يأمرؤن بمعروف، ثم فى غفلة أساتذة الشريعة عن مجاراة الأسلوب العلمى المعاصر فى تدوين المواد التشريعية على النسق المتبع فى كتب القانون الوضعى ذات الاستجابة الدقيقة إلى منهج التأليف العلمى المعاصر، كما أن هناك تعمداً مقصوداً لإغفال ما يُسمى بالفقه المقارن، إذ يجب أن تنشر البحوث القانونية موازنة بين آراء التشريع الإسلامى، وأحدث ما اهتدى إليه أرباب القانون الوضعى لأن الكفة ستكون راجحة للفقه الإسلامى متى استقامت أدوات البحث، وخلصت النيات من الغرض، أمّا تدريس أصول الفقه على نحو يتجاوز ضيق المتون والخواشى إلى فضاء التحليل المتسع، والاستنباط الدقيق، فمما يتطلب جهوداً مشتركة، إذ تؤلف لجان علمية لإعادة تحرير مادة الأصول كما دُوِّنت أسسها فى كتب الفطاحل من أئمة المجتهدين، بعيداً عن مؤلفات العصر المملوكى وما تبعه من عصور الجمود، ولم يكتف الأستاذ بالدعوة الملحة، بل بدأ النتائج العملى فأصدر بحوثاً مستقلة فى أهم فروع البيوع والمعاملات، وكان فى هذا المجال محققاً لآمال المخلصين، وعودناً يشد الأزرار، ويضئ الظلمات. . . وكم كانت فجيعة زملائه وتلاميذه فى رحيله العاجل أليمة قاسية، ولكنها سبيل مورود. . .

الأستاذ طاهر أبو فاشا

أظرف من اشتهروا بالظرف ممن شهدنا فى هذا العصر، فقد اجتمعت له حلاوة الروح، وسرعة البديهة، وبراعة النفس، فإذا قصد إلى المعابثة فهى التى تسر ولا تسيء، وذكاؤه من النوع اليقظ الذى يلمح المكنم المستتر فى الفكرة الغامضة فيسلط عليها الضوء، لتتضح دون لبس، فى بساطة لا تكلف معها، وهو بهذا الذكاء يحيل المسألة العلمية المعقدة إلى ما يشبه القصة الطريفة، وقد عهدنا أرباب النوادر يستقلون البحوث الفكرية، ولكن طاهرًا كان فريدًا فى إتقان مسائل النحو واللغة والصرف على نحو يدهش، وقد كان دائمًا من أوائل الطلبة المتقدمين مع قلة انصرافه إلى التحصيل، إذ يكفيه أن يستمع الدرس من الأستاذ ثم يعاود قراءته مرة واحدة، ليظل مطبوعًا فى خاطره، فلا يحتاج إلى تحصيل جديد، ولك أن تعجب حين ترى طاهرًا أبا فاشا لا يترك سهرات الأندية الليلية كل مساء مع فريق من أدباء جيله، ثم يأتى الامتحان فيفوق من لاهمَّ لهم سوى المذاكرة والتحصيل طيلة النهار وزُلْفًا من الليل على مدى العام الطويل.

وأذكر أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد قال عن الشاعر الفكاهى الظريف الأستاذ حسين شفيق المصرى رائد الشعر «الحلمتيشى» فى مصر: «لو تقدّم به الزمن لكانَ نديمًا على بساط هارون الرشيد». وهو قول ينطبق على طاهر أبى فاشا كما ينطبق على حسين شفيق، بل ربّما كان انطباقه على طاهر أتم وأوفى، لأنّه عالم، راوية، مؤرخ، ومجلس الرشيد كان يرحب بذوى الرواية والعلم كالأصمعى، فأبو فاشا أديب عالم نديم.

وناحية هامة في طاهر أُشير إليها، هي أنه كان ذا حساسية شديدة فيما يتعلّق بكرامته الشخصية، على غير المعهود ممن نعرف من ظرفاء عصره، فمحمد مصطفى حمام، وعبد الحميد الديب، ممن اشتهروا بالظرف والشاعريّة، ولكن حمام كان يسأل أصدقاءه المعونة، فإذا لم يستجيبوا سكت وعف، والديب كان يلح ويلحف، فإذا وجد إعراضاً هجا وأسف، ولا يغنيه أن يُعطى مرّة ومرّة، بل يثقل حتى يغیظ، أمّا طاهر فكان سيّد نفسه، وكان من الوزراء والكبراء من يخلصون له المودّة والحب بدون أن يسمح لهامته أن تخفض دون هاماتهم، وهم يعرفون ذلك عنه، فيزدادون له إكباراً، وبه إعجاباً، فهو مضرب المثل في الترفّع والإباء.

على أنّي ألحظ مشابهة كبيرة بين حافظ إبراهيم وطاهر أبو فاشا، فقد كان حافظ أمير الظرفاء في عصره، يملأ المجلس طرباً وأنساً، ويتهافت الأدباء على لقائه في الندوات الخاصة، ليظفروا بما يطربهم من الفكاهة الحلوة، والنادرة الرقيقة، ولكنك تقرأ شعره فتجده - إلاّ نبي الأقل الأندر - بعيداً عن الفكاهة الطريفة، متسربلاً بلباس الجد الصارم، وكذلك طاهر أبو فاشا، يملأ المجلس فكاهة وطرباً، ثم تقرأ دواوينه الشعرية فتجد الفارق البعيد بين النديم والشاعر، ولعلّ الشاعرين كانا يحسّان أنّاً دفيناً يحاولان التنفيس عنه في مجالس السمر، فإذا خلا أحدهما إلى نفسه، وواجه الصمت الكئيب، والعزلة القاسية، غلبه أساه، وإذا كان الشعر الجيد لاينظم إلا في الخلوة الهادئة، فإن روح الشاعر الحقيقية هي التي تسيطر عليه حينئذ، ولست أعنى أن الرجلين كانا يلبسان غير لباسهما في مجالس السمر تزويراً وتدليساً، ولكنهما كانا يحاولان الهروب من الضيق المتأزم، فلا يجدان غير التنادر والظرف، وهما ممتّعان بوسائلهما الأصلية من عذوبة الروح، وسرعة البديهة، وإتقان القفشات.

قصيدة مرحة:

ومن القلة النادرة التي تحمل رُوح الفكاهة في شعر أبي فاشا (قصيدة بحر موسى) المنشورة في ديوانه (راهب الليل) وبحر موسى يشق مدينة الزقازيق التي

كان أبو فاشا طالباً بمعهدا الدينى، وقد زارها بعد رُبع قرن من أيام الطُّلب، فتذكَّر
 أمسه الغابر بالمعهد الثانوى، وطاف بخياله طيف أساتذته الفحول أيام كان أساتذة
 المعاهد الدينية شيوخاً أجلاء يقرءون الحواشى، ويشرحون المتون، ويتحدثون
 بالعربية الفصحى، كما تذكر حياة النقشف الزاهد التى عاشها الطُّلاب، إذ يكتفون
 بيسير الزاد، وأشهى ما يُطعمونه هو الأرز المفلقل ينصبُّ عليه الطلاب قبل أن يبرد
 فيلتهمونه ساخناً لا ذعاً! وإذا حان موعده تركوا حاشية السعد، ومتون الفقه
 والنحو، وعجلوا بالتهام الطعام قبل الفوات، إن روح الفكاهة تشيع فى القصيدة
 ولكن نسجها البحترى ألسها جمالاً رصيناً تهفو إليه النفوس، ولنستمع إلى طاهر
 إذ يقول:

ياسقى الله بالزقازيق أيّاً	مَ صبأى النواضر العطراتِ
مَنْ تُرى أيقظ الخواطرَ حولى	وأثارَ المطوىّ من صفحاتى
وأعاد الأيام والمعهد السّأ	مق مسروجا بالنجوم الهداةِ
الفحول الأعلام أمثلة الزهد	و شيخانه العدول الثقاتِ
ورفيق كأنه هامش الشرح إذا صا	ت يعضغ القافاتِ
السراج العليل يشهق فى محر	ابه والبلى يروح ويأتى
ونضيج مفلقل لأذع الطعمة	يشوى أصابعى ولهاتى
هوزاد المسافرين بلازادِ	وقوت المحتاج للأقوات
يتصبى المجاورين فنصباً	عليه كالفاتحين الغزاة
اترك المتن، واطوحاشية السعد	وأدرك شيخون قبل الفوات
أنا من مازن، ومازن منى	والليالى القمرء من صدحاتى

ظاهر والشعر:

نشأ طاهر شاعراً مطبوعاً، وأخرج من الدواوين عدة أجزاء في عهد الطلب، وانتشرت له سمعة ذائعة في آفاق الشعر، وكان المظنون أن نفسه الشعرى سيمتد حتى يصبح من أعلام الشعر البارزين، ولكنّ حلقات ألف ليلة وليلة التي استهلكت أوقاته على مدى ثلاثين عاماً في الإذاعة ثم في التلفزيون قد صرفته إلى المكسب الرابع، والصيت المدوّى، ولا أنكر أن ليلات أبي فاشا ذات فن ناقد، وتصوير معبر، إذ كان يعالج شئون الحاضر في قصص الماضي معالجة ذكية بارعة، وماحازت هذه الحلقات إعجاب السامعين إلا لحيويتها الدافقة، وصورها الحية النابضة، ولكنّ ذلك كلّه لايفى بما خسره طاهر حين ترك رياض الشعر، وهو بلبلها السّاحر، وقد سجّل هذه الحقيقة أكثر من مرة في أحاديثه الإذاعية، والفنان لايملك أمره في أحيان كثيرة، حيث تسيّره الأقدار.

وطاهر ظريف بمايفعل، وبما يروى معاً، فهو قبل كل شيء قارئ ناقد يحفظ تراث العرب في النوادر، ويروى مايحفظ في مجلسه بأسلوبه الخاص، فيزيده رونقاً على رونق، وأذكر أننا تداولنا ظرفاء الماضي ذات ليلة فذكرت له فيمن ذكرت أبا السائب المخزومي، فعصّ على شفته بناجذه، وقال: لقد تردد اسمه أمامي في صفحات متفرقة، وإياك أن تبحث عنه لتجلوه قبلي، لأنه صديقي، ومضت الأيام، وتشاغل طاهر عن أبي السائب، وتركتّه له فلم أخصّه بدراسة، فهل أعود؟ هذا عن روايته الأدبية وظرفه بما حفظ، أمّا ظرفه بما فعّل من النوادر فأغرب وأعجب، لأنّه نشأ مرحاً بفطرته، يكاد يطير من خفة روحه، وما صاحبه أحد إلا شهد من طرائفه العملية ماتبتسم له القلوب قبل الشفاه، فليت أصدقاءه يحرصون على تسجيل ما يعلمون، إذ لم يكن هذا النديم الفكه متكلفاً يتصنع، بل كانت موافقه الضاحكة، ومفارقاته الباسمة فيض فنان مطبوع، تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس، والعطر عن الورد، وقد صحبته فكاخته من فجر حياته حتى حان قطافه، وسأحاول أن أتبع نذراً منها وفق ترتيبها الزمني، وهي محاولة تقدّم الضئيل القليل ليدل على الكثير الحفيل، وحسبى ذاك.

فى معهد دمياط:

كان والد طاهر تاجرَ أهدية يريد أن ينشأ فتاه كما نشأ، ولكن الطفل الناهض تعلم القراءة سريعاً، وحفظ القرآن، ثم التحق بجامعة البحر، مقر المعهد الدينى بدمياط، فلفت إليه الأنظار بتفوقه الذى لم يفارقه طيلة حياته، وكان الطلاب يجلسون بالمسجد على الحصير، فأراد أحد الأثرياء أن يحضر لولده الطالب (شلتة) يجلس عليها، ورأى فضيلة شيخ المعهد الأستاذ الكبير عبد الله دراز أن ذلك امتياز فريد لا يلىق، فعرض الوالد الثرى أن يحضر أربع (شلتات) تُوزع على من يختار شيخ المعهد من النوابغ، وكان طاهر فى السنة الأولى أول فرقة فاختير، وسلّمت له (الشلتة) ولكنه فى اليوم الثانى لم يحضرها، وجلس على الحصير، فاستجوبه المسئول عن النظام، فقال طاهر: إنه باعها وصرّف الثمن!! وأحضره شيخ المعهد، وكان أباً عطوفاً فسأله: كيف تباع ما ليس لك؟ فقال طاهر: لقد قلتّم إنّه لى، وتسلمتها لتصبح ملكى، فأردت أن أثبت من ذلك؟ لأعرف مبلغ صدقكم! وكانت النادرة الأولى للطالب الصغير.

فى معهد القاهرة الثانوى:

أتمّ طاهر تعليمه الابتدائى، وقد ظهرت بواكير شاعريته، فذهب إلى المعهد الثانوى بالقاهرة، ولم يمض نصف عام حتى مات شوقى أمير الشعراء، فاجتمع طلاب المعهد بالفناء، وخطب فيهم طاهر داعياً للذهاب كى يشيعوا الشاعر الكبير، وفوجيء شيخ المعهد بما عدّه خروجاً على النظام، فرفع الأمر إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، طالباً فصل الطالب، واستجاب الشيخ الظواهري، فصعب الأمر على طاهر، وتوسّل بالدكتور محمد غلاب صاحب مجلة النهضة الفكرية، فشفع ملحا، ولكن شيخ المعهد أصر، فكان الحلّ أن ينقل طاهر إلى معهد الزقازيق.

وفى أيامه بالقاهرة، ذهب الشاعر الناشئ لزيارة الأهرام وأبى الهول، فصادف

أن رأى سائحة أمريكية حسناء تقف أمام التمثال متعجبة، فبهرة منظرها، وأنشأ قصيدة قال فيها:

يكاد أبو الهول لولا الجلال يُعربد مما رأى حولَه
وكم سبُعُ قُدَّ من صخرة يحبُّ الجمال ويصبوُ لهُ
وأوهمها أنه كالجُماد لتأمنه فتطيل الوقوفُ
ولولا مخافتهُ أن تخاف لقام يدقُّ لها بالدفوفُ

والتصوير في البتين الأخيرين رائع، وقد عرض طاهر قصيدته على بعض زملائه فحسدوه، ورموها بالضعف، فسألَ مَنْ أكبرُ شاعرٍ في مصر بعد شوقي؟ ف قيل: إنه خليل مطران، فسارع الشاعر المبتدئ للقاءه وعرض عليه القصيدة، فصفق شاعر القطرين معجباً، فقال له طاهر: اكتب بخطك أن القصيدة جيّدة، فاستجاب الشاعر الأكبر، ونشأت بينهما علاقة أدبية ممتازة، كان من أثرها أن كتب خليل مطران مقدمة ديوان (الأشواك) الذي أصدره طاهر فيما بعد.

في معهد الزقازيق:

انتقل طاهر إلى معهد الزقازيق، وطارت له شهرة في الأدب نظماً ونثراً، ولكن عبثه الفكاهي لم يتركه، فقد تقدّم يوم الطلاب بمسجد المعهد في صلاة العشاء، وعثر به القول، فأخطأ في الآية الكريمة التي تلى الفاتحة، ثم أخطأ في الركعة الثانية، فشغب عليه بعض السامعين، فاندفع مغيضاً وترك الصلاة، وبلغ الأمر شيخ المعهد فأنب الطالب دون أن يسيئه بعقاب، ولكن أحد المدرسين برّم بما صنع المصلّي النزق، وتوعده بالسقوط في الامتحان الشفوي آخر العام، وفوجئ طاهر بأنه سيمتحن في لجنة هذا المتوعد المغيظ، فامتلث، ولكنه وقف على الكرسي دون أن يقعد، وجعل يصرخ بالإجابة، فانزعج الحاضرون، وأقبل الأستاذ محمود أبو العيون شيخ المعهد إذ ذاك، فقال له طاهر: هذا الشيخ قد حلف أنه سيسقطني،

فأردتُ أن أجيب بصوت مرتفع لسمع الناس جميعاً ويعرفوا صحة الإجابة، فضحك أبو العيون، وحضر النقاش جميعه، إذ أجاب الطالب ببراعة، وفاز في الامتحان.

فى القاهرة ثانياً:

عاد طاهر إلى القاهرة بعد أن نال الشهادة الثانوية، والتحق أولاً بكلية اللّغة العربية حيث قضى بها عاماً قبل أن يغادرها إلى دار العلوم، ومن طرائفه المتواترة أنّه ذهب ذات صباح للكلية، وهو يلبس الجلباب والطرش، فأنكر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية خروجه على الزى المألوف، وألزمه بأن يحضر غداً بالعمامة والكاكولة، وفوجيء الطلاب فى الصباح التالى بطاهر يأتى إلى الكلية وقد لبس الكاكولة على جسمه العارى، ووَضع العمامة على رأسه قائلاً: إن الشيخ حمروش طلب حضوره بالكاكولة والعمامة فقط ولم يذكر شيئاً من الملابس الأخرى، وعلا الهرجُ، وأحسّ الطالب أن الشيخ سينتقم من هذا العابث، فخرج سريعاً قبل أن يمثل بين يديه.

وفى دار العلوم ذاع له صيتٌ بالأدب والفكاهة، وقد جاءه زميله الطالب محمد هارون الحلو حزيناً يعلن أنه رسب فى الامتحان ويخاف غضب والده، والطالب دمياطى كطاهر، وكانت أسماء الناجحين من الطلاب تنشر حينئذ فى جريدة البلاغ اليومية، ولطاهر صلة بها، فقال له طاهر، لا بأس، فسأحضر من الكلية قائمة الطلاب، وسأدرج اسمك بين الناجحين، قبل أن أذهب بها إلى جريدة البلاغ، فرحّب الحلو بالفكرة، وكتب طاهر اسم صاحبه زاعماً أنه سقط سهواً، واستدرسته إدارة الكلية، وظهرت البلاغ لتتقد الطالب من غضب أبيه، ويضيق المقال عن سرد دعاياته مع أساتذته فى دار العلوم، ومن أظهرهم حينئذ الأديب الكبير محمد هاشم عطية الذى ازدحم صدر طاهر بذكرياته عنه.

فى منزل القاياتى:

يتحدث طاهر دائماً عن أستاذه الشاعر الكبير الأستاذ حسن القاياتى، لأن منزله

العامر بالقاهرة كان مأوى الطلاب وذوى الحاجات، كما كان ندوة كبرى يؤمها كبار رجال السياسة والأدب والفن، وفى هذا المكان الرحب عرف طاهر أساتذة مصر الكبار، من أمثال منصور فهمى، وعبد العزيز البشرى، وزكى مبارك، والهرامى، وأحمد الزين، وأحمد ماهر، ومحمد صبرى أبو علم، وقد روى طاهر عن الشاعر القاياتى نواذر رائعة لوجمعت لأمتعت وبهرت، فالقاياتى علّم فى جيله، وكان عضواً نابهاً بمجمع اللغة العربية، وعضواً بمجلس النواب، وله بزعم مصر الرئيس الجليل مصطفى النحاس صلة وثيقة.

يقول طاهر - فيما يرويه عن القاياتى - لقد كان الأستاذ الكبير حسن القاياتى فى زيارة الزعيم الجليل بمقر مجلس الوزراء، فحضر بعض الوجهاء، وقَدّم للزعيم خاتماً يحمل صورة رمسيس فى فصّه، وكانت الهدية تحفة فنية رائعة ذات مدلول تاريخى، فخطر للقاياتى أن يرتجل أبياتاً قال فى نهايتها مخاطباً مصطفى النحاس:

أيملكُ رمسيس هذى البلاد وتملكُ رمسيسَ فى أصبعك؟

ولكنّ النحاس قال بصوت مرتفع: أستغفر الله يا شيخ حسن، الملك لله وحده! من نحن؟

قال القاياتى وقد أعجبنى نقد الزعيم لأنه أصاب سداداً، وصحّ خطأ، هكذا قال طاهر.

أصدقاء كثيرون:

لطاهر أصدقاء كثيرون يعتزون بصداقته، ويعرفون من نواذره الضاحكة المضحكة ما نود أن يُسجّل قبل أن يضيع، ومن طرائفه معى أنه كان يزور المنصورة سنويًا ليقرأ الفاتحة على قبر زوجته الراحلة، ففوجئت به يأتى إلى كلية اللغة العربية حيث أعمل، ويقول فى ابتسام: «المشوار راح أو نطة» قلت: لماذا؟ قال: حضرت لزيارة قبرها كما تعلم، فوجدت شابا وشابة يتناجيان على مقربة من الضريح، فرفضت أن أزعجهما، وقلت: لقد ضاقت بهما المنصورة، فلم يجدا غير

المقبرة، ثم أتى من القاهرة لأجعل المقبرة تضيق بهما أيضاً! مستحيل، فقلت: هوّن عليك، سأزور القبر نيابة عنك، فقال فى جدّ: احلف بالله، فحلفت، فقال إذن أسافر وأنا مستريح!

وطرفة أخرى: ذهبتُ ذات ظهيرة إلى منزله بالعباسية، والوقت وقت غداء، فأحضر كيلو من التفاح، وقال هذا غداؤك، أما أنا فعندى رُبع دجاجة صغيرة سأكلها مع نصف رغيف، فقلت: موافق. وبعد أن أكلنا وتناولنا الشاي، سألتنى قائلاً: أينا الكاسب؟ أنا أم أنت؟ قلتُ: أنا، قال: كلا، لقد ضحكتُ عليك، أنت ستجوع بعد خمس دقائق لأن التفاح لا يشبع، أما أنا فلن أجوع إلا بعد العشاء! هذا قليل من كثير! وقد أعود إلى حديث طاهر فى غير هذا النطاق.

* * *